

إسهامات المحققين الغربيين في إحياء التراث العربي الجغرافي والرحلي

د. سميرة أنساعد أستاذة محاضرة أ جامعة حسية بن بوعلي الشلف

Enssad_samira@yahoo .fr

مقدمة:

يُعرف الاستشراق Orientalisme على أنه حركة علمية غربيّة، سعت إلى دراسة الشرق وثقافته خلال أواخر القرون الوسطى في أوروبا، وقد احتضنت هذه الحركة جامعات أوروبية كثيرة في فرنسا وإنجلترا وألمانيا وهولندا.. وغيرها، واعتنى فيها أساتذتها المتخصصون في اللغات الأجنبية كالعربية، والديانات، واللاهوتية بتأليف بحوث ومقالات وكتب عن الثقافة العربية والدين الإسلامي، ومقارنته بالمسيحية، كما قاموا بترجمة المصادر الإسلامية إلى اللاتينية، وهي التي غدت وسيلة فعالة للنهوض بالذات الغربية، وإحياء العلوم، وإعلاء كلمة العقل، مما أدى إلى حلول نهضة شاملة بأوروبا، وهيمنة الفكر التنويري، والنزعة الاستعمارية في ذلك العصر الممتد من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر، ولا تفصل حركة الاستعراب عن الحركة الاستشراقية، إذ ظهرت في فرنسا خلال القرن السادس عشر، واعتنت باللغة العربية وبالحضارة العربية الإسلامية ضمن إطار مؤسسات علمية، كمؤسسة القراء الملكيين في عهد الملك فرانسوا الأول، وقد نمت هذه الحركة شيئا فشيئا حتى غدا التحقيق مع الناشطين فيها عملية علمية دقيقة في منتصف القرن العشرين: "حتى نشأت طبقة من المحققين العرب الذين تتلمذوا عليهم وتخرجوا بهم في هذا المجال إلى أن ضارعوهم فيه ثم بزوهم سبقا بعد ذلك التاريخ."¹

التحقيق الغربي لكتب الجغرافيا والرحلة:

عمل العلماء والأساتذة الغربيون على تحقيق التراث الإسلامي؛ لتعميق المعرفة بالإنسان وبالأرض في البلدان المستعمرة، وكانت البداية مع بحوث فقه اللغة والأنثروبولوجيا، وكتب الجغرافيا والرحلات، التي سعى المترجمون والباحثون الغربيون بواسطتها إلى توفير معارف غنية لحكام المستعمرات الإفريقية

¹ ريجيس بلاشير وجان سوفاجيه، قواعد تحقيق المخطوطات العربية وترجمتها (وجهة نظر الاستعراب الفرنسي)، تر. محمود المقداد، لبنان، سوريا، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، ط1، 1988، ص. 13.

والآسيوية عن: "طرق المواصلات فيها والمرافئ البحرية وما يتوفر فيها من المعادن ومنتجاتها، وأيضا تقاليدها وطرق تفكيرها وثقافتها ومذاهبها، لأن معرفة هذه الأشياء لم تكن تتوفر إلا في كتب الجغرافيا التي صنفها العرب، وكتب الرحلة التي سطرها الرحالون في مختلف العصور".²

وقد اشتدت هذه العناية بكتب الجغرافيا والرحلات في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث شرعت المطابع الأوروبية تحت إشراف الأساتذة بإعادة طبع ونشر المصادر العربية معتمدين في ذلك على ضوابط استمدوها من العلماء السابقين الذين خبروا مناهج التحقيق اليونانية، واللاتينية، أو العربية القديمة، وهذا ما يجعلنا لا نغفل دور العرب في إنشاء هذا الفن دون استخدام مصطلح التحقيق.³

وتزعمت هولندا الحركة الاستشرافية، لشهرة البلد في الملاحة البحرية منذ القرن السابع عشر، ولأسبقيتها في مضمار الاحتلال في الشرق الأقصى، والمحيط الهادي⁴، وساهمت على الخصوص مطبعة بريل منذ تأسيسها عام 1683 في نشر التراث العربي، بالحروف العربية، وتحقيق المخطوطات التي كان يجلبها الرحالون والبحارة والمستكشفون الهولنديون من دول الشرق الأوسط وآسيا، ثم ترجمتها إلى اللاتينية أولا، وبعدها اللغات الحية الفرنسية والإنجليزية والألمانية، وقد ميّز المطبعة تخصصها في كتب الجغرافيا والتاريخ وكتب العلوم واللاهوت، ولم تعتن بالموضوعات السياسية، وهو ما جعلها بعيدة عن الصراع القائم بين الشرق والغرب، وقد ارتبطت المطبعة بجامعة ليدن خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فكان من أهم الناشطين فيها الأساتذة والباحثون المهتمون باللغات الشرقية وبالحضارة العربية والإسلامية، مثل رينهارت دوزي، ودي غويه، ومؤسس المطبعة توماس إرينيوس الذي كان بروفيسورا في جامعة ليدن، ومستشرقاً ومؤسساً للنهضة الاستشرافية.

² إسماعيل العربي، دور المسلمين في تقدّم الجغرافيا الوصفية والفلكية، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1994، ص. 9.

³ ريجيس بلاشير وجان سوفاجيه، قواعد تحقيق المخطوطات العربية وترجمتها، وجهة نظر الاستعراب الفرنسي، نر. محمود المقداد، بيروت- دمشق، دار الفكر المعاصر- دار الفكر، ط.1، 1988، ص. 9-15 (مقدمة المترجم).

⁴ المرجع نفسه، ص. 10.

وقد أسفرت جهود التحقيق الأولى عن إصدار سلسلة بعنوان "المكتبة الجغرافية العربية" بإشراف المستشرق دي غويه (M. J. De Goeje) المتوفى عام 1909، وتبعه في الترجمة والتحقيق المستشرق الهولندي دوزي (R. Dozy) (1820-1885م) ومجموعة من العلماء الإنجليز والفرنسيين والنمساويين والألمان، ويمكن تعداد أهم أعمال النشر والترجمة التي قام بها أعلام أكثر من المستشرقين في سبيل التعريف بالمصادر الجغرافية العربية القديمة، وبالرحلات التي لا تخرج عن نطاق الجغرافيا والتاريخ، وعددها الكبير مع تقدّم الفترة التي أنجزت فيها هذه الأعمال تبرهن على شدة العناية بهذا التراث وبرغبة العلماء الغربيين في معرفة أسرار البلدان المستكشفة، وتمكين حكام بلدانهم من السيطرة على العالم، ومن هذا نذكر ما يلي:

1. نشر شارل باريبي دي مينار (C. Barbier De Meynard) المتوفى سنة 1908م وترجم إلى الفرنسية كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد بن خرداذبه (205هـ/820م-280هـ/912م)⁵، وأعاد نشره وترجمته دي غويه ضمن سلسلته الجغرافية في العدد السادس عام 1889، مستعينا بترجمة باريبي، الذي تفضل بتصحيح عمل دي غويه الجديد.
2. نشر المستشرق جوينبول (T. G. J. Juynboll) مواليد هولندا عام 1882 كتاب البلدان لليعقوبي (ت. 292هـ- 905م) في ليدن سنة 1861م، وفي ليدن أيضاً نشره المستشرق دي غويه سنة 1892م ضمن المكتبة الجغرافية العربية، وفي سنة 1937 حققه ونشره بالفرنسية جاستون فيث.
3. ترجم ج. هـ. مولر إلى اللاتينية كتاب مسالك الممالك للإصطخري (ت. النصف الثاني من القرن الرابع الهجري)، ونشره مختصراً سنة 1830م، ونشره كاملاً دي غويه في ليدن سنة 1870م.
4. نشر فرديناند فستنفلد (Heinrich Ferdinand Wüstenfeld) المتوفى سنة 1899م كتاب "وصف العالم" أو ما يسمى "آثار البلاد وأخبار العباد" لزيكراء بن محمد القزويني (ت. 682هـ- 1283م)، في جوتنجن عام 1848م.

⁵ IBN KHODADBEH, Le livre des routes et des provinces, Publié, traduit, et annoté par C. Barbier De Meynard, Journal Asiatique, ou Recueil De Mémoires d'Extraits et des notices, Sixième série, tome v, Janvier- Février 1865,p

5. نشر وترجم فستنفلد أيضا "معجم البلدان" لياقوت الحموي (ت. 662هـ - 1228م) في ليبزج بألمانيا بين سنتي 1866 - 1873م.
6. نشر فستنفلد كذلك كتاب "معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع" لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري (ت. 487هـ - 1094م) في جوتنجن سنة 1876م.
7. طبع كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" لمحمد الإدريسي (ت. 564هـ - 1160م) مختصراً في روما سنة 1592م باسم «نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق»، ثم ترجم جبرائيل الصهيويني وحنا الحصريوني هذا المختصر إلى اللاتينية، ونشره في باريس سنة 1619م، وترجم كوندي وصف الأندلس إلى الإسبانية، ونشره مع الأصل العربي في مدريد سنة 1799م، ونشر جوبير في باريس جزءاً كبيراً من الكتاب بالفرنسية سنة 1840م، ونشر دوزي القسم الخاص بالمغرب والسودان ومصر والأندلس في ليدن سنة 1864م، وفي ليبزج نشر ميلر وصف فلسطين وبلاد الشام سنة 1882م، وفي روما نشر أمالري الجزء الخاص بإيطاليا سنة 1985م.
8. نشر المستشرق البريطاني وليم رايت (1830م - 1889م) رحلة محمد بن جبير الأندلسي (ت. 614هـ - 1217م) في ليدن سنة 1852م، وترجمه إسكياباريلي إلى الإيطالية ونشرها سنة 1900 في روما، ونشرها دي غويه سنة 1907 في ليدن، كما ترجمها أمالري إلى الفرنسية ونشرها في باريس.
9. قام الهولندي رينهارت دوزي بتحقيق وترجمة أعمال العلماء المسلمين في المغرب والأندلس، فوضع معجماً لألفاظ العربية، وحقق وترجم كتاب "المعجب" لعبد الواحد المراكشي.
10. نشر دوزي كذلك القسم الخاص بالمغرب والسودان ومصر والأندلس من كتاب الإدريسي "نزهة المشتاق" في ليدن سنة 1864م.
11. اعتنى جريفز بنشر الجزء المتعلق بخوارزم وما وراء النهر من كتاب تقويم البلدان لأبي الفداء (ت. 742هـ - 1341م) في لندن سنة 1650م، ونشر المستشرق الفرنسي جان دي لاروك ترجمة جزء من كتاب تقويم البلدان سنة 1918م، وفي ليبزج نشر كويلر الجزء الخاص بالشام من كتاب تقويم البلدان سنة 1966، ونشر المستشرق رايسكة سنتي (1770 - 1771م) أول ترجمة كاملة لكتاب أبي الفداء، وفي عام 1776 نشر

ميخائيليس في جوتنجن الترجمة اللاتينية للجزء الخاص بديار مصر مع النص العربي، وفي جوتنجن أيضاً نشر إينجهورن أجزاء تتعلق بإفريقيا عام 1791، وفي عام 1840 نشر رينود ودي سيلان الكتاب كاملاً مترجماً إلى الفرنسية وعرف في الترجمة الفرنسية باسم «جغرافيا أبي الفداء» والذي نشره ثانياً المستشرق الفرنسي جيار سنة 1883م.

12. قام الفرنسي ليفي بروفنسال (Levi Provencal) (1894-1956م) بتحقيق الروض المعطار لمحمد بن عبد المنعم الحميري (ت. 292هـ).

ويمكن التركيز في هذه المداخلة على أهم جهود المستشرقين في مجال الجغرافيا والرحلات؛ وهم الذين عرفوا بسعة اطلاعهم على مختلف مصادر العلوم والمعارف، واستفادتهم من الكتب اللغوية، والتاريخية، والجغرافية، والاقتصادية، والأنثروبولوجية ومعاجم اللغات لشرح الكلمات، والألفاظ الغامضة والأعجمية، وحرصهم على مراجعة فهارس المخطوطات، للوصول إلى النسخ المقصودة، والاطلاع على المجالات المتخصصة في نشر التراث العربي كمجلة الجمعية الآسيوية، والمجلة الإفريقية، وقد سبق التنبيه إلى أن المستشرقين استفادوا من العرب القدماء في التحقيق، وأهم ما ميّز عملهم الاستناد إلى نسخ كثيرة من المخطوط الواحد، والبحث في صحة ما فيها، والمقارنة بينها، وتصنيف الفهارس الداعمة لقراءة المخطوط، وسنحاول في هذا المجال التعريف بمناهج التحقيق في ثلاثة أعمال والتنبيه، إلى أوجه الاختلاف بينها والإشارة إلى ما في هذه الأعمال من مزايا وهنات.

I. دي غويه ومنهجه في تحقيق كتاب المسالك والممالك:

أسهم المستشرق الهولندي ميخائيل جان دي غويه (1836-1909) في إصدار "المكتبة الجغرافية العربية" في عشرة أجزاء لكبار الجغرافيين المسلمين، صدرت ما بين عامي (1870-1894) معتمداً فيها على مخطوطات مكتبة ليدن، وما يهمننا هنا هو عمل التحقيق لكتاب "المسالك والممالك" لابن القاسم عبيد الله بن عبد الله ابن خرداذبه عام 1889 في مطبعة بريل.

وقع تحقيق كتاب ابن خرداذبه في ثلاثمائة وثمانية (308) صفحة، ويمكن التعرف على منهج دي غويه من خلال الاطلاع على صفحة العنوان، ومضامين مقدمته، وبواسطة ملاحظة هوامشه أسفل صفحات المتن، كما تزيدنا هوامشه الإضافية وفهارسه اطلعا على هذا المنهج.

1. العنونة:

يلاحظ على العناوين أنها متوفرة باللغتين العربية واللاتينية، وقد راعى دي غويه المنهج الغربي في نقل الحروف العربية إلى اللاتينية، وتضمنت العناوين عنوان الكتاب كاملاً، واسم المؤلف وكنيته، واسم المحقق، والمطبعة ومكان الطبع وتاريخه.

2. التمهيد:

تضمن كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه تمهيدا موسعا خلا من العناوين، وإن جاء موزعا على فقرات تضمنت المعلومات التالية:

أ. التعريف بالمؤلف:

- الابتداء بتحقيق الاسم، وتعيين أوجه الاختلاف في اسم والد ابن خرداذبه، للوصول إلى التقرير أن اسم الجد هو الفاضل، وهو الذي يعتمد عادة عند وجود مثل هذه الاختلافات.
- التعريف بجدّ المؤلف، وبأبيه، مستشهدا بنصوص من كتاب الأغاني، وموردا مقاطع شعرية في مدح الجد، وهنا يستوقف موضوع تحقيق زمن الجد والوالد، ليحقق في زمن حياة هذا الشاعر، وهو الذي قد يظنه القارئ استطرادا وخروجا عن الغرض الأساسي، لكننا بمجرد مواصلة القراءة نكتشف أن دي غويه بتحقيق هذه الحادثة ينوي الوصول إلى تحديد فترة المؤلف ابن خرداذبه بذكاء لامع، وترجيح زمني مقبول، ليستنتج في النهاية تاريخ وفاة المؤلف التقريبي، وهذا يفيد مدى دقة دي غويه، وعدم اقتناعه بالرواية الواحدة.
- التحقيق في علاقة والد المؤلف عبد الله مع اسحق الموصلي، وإدراك المؤلف ابن خرداذبه للشخصية ذاتها، في بداية حياته، وهو كذلك عمل يضم إلى السعي السابق في تحقيق فترة حياة المؤلف.

- التعريف بمهنة المؤلف وهي العمل في البريد، ويعتمد في هذا على مصدرين أحدهما عربي قديم لابن الفقيه⁶، والثاني فرنسي وهو مقال لباربيي منشور في المجلة الآسيوية، وبذلك يكون قد كيّف في مصادره بين العربية والغربية، وهذا دأبه في المراحل الأخرى.

ب.. معلومات مفيدة عن الكتاب ووصف نسخ المخطوط:

- نقل آراء وأقوال العلماء العرب القدامى في كتاب المسالك والممالك، ما بين آراء تبدي الإعجاب بالكتاب، والتقدير لمادته، وآراء تقلل من قيمته، كرأي الإدريسي صاحب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، غير أن دي غويه كان شديد اللهجة في الرد عليه حيث أعرب عن استغرابه؛ فالإدريسي كان كثيرا ما يعتمد لكتابة رحلاته على روايات ابن خرداذبه وأخباره.
- تعيين جميع النسخ المحصل عليها، ووصفها وصفا سريعا يركز فيه غالبا على مصدر النسخة، كما لها أو نقصها، وضوح خطها أو غموضه، كما أضاف بعض المعلومات عن إمكانية المخطوطات، وظروف اقتنائها، أو الحصول عليها.
- اعتماد النسخة الأكثر وضوحا ونصا، ورمز لها بالنسخة "A"، والتنبيه إلى ما فيها رغم ذلك من نقص، وهذا ما يدخل في مرحلة تحقيق النص، وكان اعتماده أثناء الحكم بنقصان النسخة على المؤلفات الجغرافية المحيلة على كتاب المسالك، ككتاب صورة الأرض لابن حوقل، ومختصر كتاب البلدان لابن الفقيه.
- تبيان النقص في النص كاملا، والإشارة أيضا إلى حالات التلخيص في النسخة المعتمدة، رغم وجود النصوص كاملة في مصادر الجغرافيا المعاصرة، والتالية لزمن تأليف المسالك، وهذا يحيل إلى اجتهاد المحقق في قراءة مصادر كثيرة للدقة في التحقيق.
- المقارنة بدقة بين النسخة "A" والنسخ الأخرى التي رمز لها بـ: "B"، و "C"

⁶ أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني، المعروف بابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، نشر دي غويه، دار بريل، لندن، 1885م.

- محاولة تعيين زمن كتابة النسخة.
- تبيان مواضع تغير الخط، ووصف هذا الخط من حيث خبرة الناسخ الجيدة في الكتابة، أو حداثة الناسخ في الصنعة. وإظهار الزيادات البعيدة زمنيا عن زمن النسخة، بدليل تغير لون المداد ما بين الأحمر والأسود، وطبيعة الخط، وحالته، وقد جعلت هذه الظاهرة دي غويه يستنتج مشاركة مصححين آخرين في النسخ.
- التنبيه إلى أخطاء النساخ اللغوية، كالخطأ في التأنيث والتذكير ومنها تذكير لفظ إصبع وذراع بدل تأنيثهما، وفي كتابة الأعداد.
- الوصول إلى زمن تأليف الكتاب بواسطة الاعتماد على حالات ذكر حكام كانوا على قيد الحياة، ولا يكتفي بذكر الحكام، بل يستشهد بمصادر تاريخية وأدبية لتأكيد وجود هؤلاء الحكام في ذلك الزمن، ويقول بعد كل ذلك البحث والتحري: "مع كل هذه المعطيات أظن أنه يحق لي الاستنتاج أن ابن خرداذبه قد ألّف كتابه نحو سنة 232هـ، وأدخل إضافات تدريجيا بعد ذلك، واكمل قبل 272هـ"⁷
- الوصول إلى تبيان قيمة الكتاب بين العلماء المعاصرين المشاركة والمستشرقين.
- تحري زمن التدوين للنسخة الأولى المعتمدة، خاصة أن المعلومات قد طمست ولم يبق سوى تاريخ حادثة غزو ابن تومرت لتونس عام 540هـ، غير أن المحقق استبعد فرضية تدوين الكتاب خلال هذا التاريخ ورجّح أن يكون سابقا له.
- تناول مناسبة التأليف التي كانت بسبب طلب وجهه أحد الحكام لابن خرداذبه لكتابة مؤلف يجمع أخبارا وأوصافا عن ممالك العالم، ومختلف المسالك الموجودة.
- ذكر الكتاب الثاني وهو كتاب الخراج وصنعة الكتابة لقدامة بن جعفر، واعتمد خطة موجزة في هذه المرة؛ حيث عرّف بالمؤلف، وحالة المخطوط ونسخه، مع ذكر مصادر النسخ من أشخاص ومكتبات.

3. فك رموز التحقيق:

قدّم دي غويه في آخر المقدمة شرحاً للرموز الموضوعة في المتن، وفي الهوامش.

4. صفحة للتنبيه:

جاء بعد التقديم تنبيه من قبل المحقق دي غويه إلى وجود بعض التصويبات التي أدخلها بسبب وجود أخطاء في كتابة أسماء أعلام، وأماكن، وأخطاء لغوية، وإملائية كقوله أربع وعشرون درجة، عوض ما ورد في النسخة المعتمدة أربعة وعشرون درجة، وكانت أربعة آلاف ومائتين مدينة بدل كانت أربعة آلاف ومائتان، وقول المحقق أما قبله أهل اليمن فصلاّتهم بدل ما ورد في النسخة A فسلاتهن.

5. التهميش وخصائصه:

- جاءت الهوامش باللاتينية، رغم ورود التقديم بالفرنسية.
- استعان دي غويه بالعربية لتقديم التوضيحات الخاصة بالفروق بين النسخة المعتمدة والنسختين الثانويتين، وكتبت المعلومات عن المراجع أسماء المؤلفين وعناوين الكتب المذكورة، والكلمات العربية التقنية باللاتينية
- تصنيف المخطوطات وتخصيص حرف لكل منها حسب الترتيب الهجائي للحروف اللاتينية الكبيرة (majuscules) A, B, C، ورموز الهوامش بحروف صغيرة (minuscules)،
- دوّن في الهوامش الأخطاء التي وقع فيها الناسخ، وهي كثيرة منها: قوله أربع وعشرون درجة، عوض ما ورد في النسخة المعتمدة أربعة وعشرون درجة، وكانت أربعة آلاف ومائتين مدينة بدل كانت أربعة آلاف ومائتان، وقول المحقق أما قبله أهل اليمن فصلاّتهم بدل ما ورد في النسخة A فسلاتهن.
- اعتمد دي غويه على مصادر جغرافية نقلت نصوصاً من الكتاب المحقق، وبالتالي مقارنة النسخة الأولى بالنسختين الثانية والثالثة، وبالنصوص الواردة في كتب ابن رسته، وابن الفقيه، وابن حوقل.

- أما سلبيات التهميش فمنها ورود الإحالات موجزة، سريعة، تعتمد الرموز والاختصار في تعيين المعلومات البليوغرافية حول مصادر التحقيق سواء كانت عربية أو غربية، وهو ما يصعب تمثله لغير المتمرسين بالتحقيق الغربي، وأمثله كثيرة منها:

Koran 25 vers.40, Ibn Rosteh, Yaqut, Ibn al fakih, Mokaddasi, Istakhri, Jakubi, Massudi, Tabari, Ibn Hauk,

أحال دي غويه فيما سبق إلى القرآن الكريم، مع تحديد رقم السورة ثم رقم الآية، وكتاب الأعلام النفيسة لابن رسته، وكتاب البلدان لابن الفقيه، وكتاب الآثار الباقية للمقدسي، وكتاب المسالك والممالك للاصطخري، وكتاب البلدان لليعقوبي، وكتاب مروج الذهب للمسعودي، وكتاب تاريخ الطبري، وكتاب صورة الأرض لابن حوقل.

6. اللواحق من الفهارس:

أتبع المحقق دي غويه نص الكتاب بفهرس أول لأسماء الأماكن والأعلام، وفهرس ثان لأسماء الرجال والقبائل، وثبت لشرح الكلمات غير العربية، والصعبة، وهذه الطريقة في تأجيل الشروح إلى آخر الكتاب، والاكتفاء في الهوامش بمقارنة النسخة المعتمدة في التحقيق مع النسخ الأخرى كانت لهدف عدم إثقال النص الأصلي بتلك الهوامش، لكن تأجيل شرح الكلمات الصعبة إلى آخر الكتاب أمر يصعب عملية القراءة، ويحتم على القارئ دائما العودة إلى الجزء الأخير والبحث عما إذا نالت الكلمة عناية وشرحا أم لم تنل ذلك.

وفي الأخير نشير إلى أن دي غويه كان من حين لآخر يطلق أحكاما شخصية ومنها: قوله أن أحد البرامكة دعا جد المؤلف وهو خرداذبه إلى اعتناق الإسلام بعدما كان مجوسيا، ورد ذلك إلى أهمية جد المؤلف بين قومه، وهو ما قد يفسر من قبل الجهال من أن دعاة الإسلام يبحثون عن المصلحة الشخصية، والاغتناء، والتقرب من كبار القبائل، والأقوام.

ويصف المحقق في موضع آخر مخطوطات العلماء العرب، ونسخهم الأصلية بأنها ذات مظهر غريب؛ بفعل التغييرات والإضافات التي يدخلها المؤلفون بعد فوات الأوان على كتبهم، وفي شكل فوضوي، وعشوائي، يصل بهم أحيانا إلى زيادة وريقات منفصلة تتطير وتضيع مع مرور الزمن لعدم إحكام تجليدها، أو ضمها مع الأوراق الأولى للكتاب.

II. المستعرب دي سلان ومنهج تحقيق كتاب البكري:

هو البارون ماك غوكين دي سلان (M. G. De Slane) (1801-1878) وهو مستعرب عضو في مجلس الجمعية الآسيوية، قام بتحقيق ودراسة وترجمة التراث العربي الإسلامي في الجزائر. ففي عام 1845 أرسلته وزارة التربية والتعليم الفرنسية إلى الجزائر في مهمة علمية. اهتم بفهرسة المخطوطات ووضع قائمة عناوين أهم المخطوطات العربية التي تحتوي عليها المكتبة الوطنية بالجزائر، ومكتبة سيدي حمودة بقسنطينة، وعيّن دي سلان في وظيفة كبير المترجمين في الجيش الفرنسي في الجزائر، قام بترجمة مقدمة ابن خلدون، وتاريخ البربر المقتبس من كتابه العبر، وقام أيضا بتحقيق مجموعة كتب ونصوص، منها: كتاب "المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب"⁸ لأبي عبيد البكري الواقع في مائتي صفحة واثنان عشر (212)، هذا المؤلف الأخير هو الذي يهمننا لأنه من مصادر الأدب الجغرافي العربي.

اختار دي سلان في بداية مقدمته التعريف بالفترة التاريخية التي عاش فيها المؤلف البكري، وبحكام المغرب الإسلامي، والأندلس، ليشرع بعد ذلك في تحقيق الكتاب وفق منهج المستشرقين المعروف، ولذلك مرّ بالمراحل التالية:

- التعريف بالمؤلف، اسمه، ووالده، وحياته.
- تعداد مؤلفات البكري، وذكر الطبعات المتوفرة للوصول إلى المسالك والممالك، والذي اكتفى دي سلان بتحقيق ونشر جزء من كتاب وصف إفريقيا الشمالية.
- تبيان أهمية الكتاب ودقة وصفه، وثراء مضمونه.
- ذكر مضامين الكتاب الفرعية.
- تعيين تاريخ التأليف وعلّق المحقق من أن الوصول إلى زمن التأليف يكون بالنظر إلى آخر تاريخ، وآخر حادثة آنية ذكرت في الكتاب.
- مصادر البكري المقروءة والمسموعة، ورحلاته، واستغل دي سلان الفرصة للتعريف بأحد الأشخاص الذين اعتمد البكري عليهم مباشرة وهو محمد بن يوسف المعروف بابن الوراق.
- التنبيه إلى صعوبات قراءة النص، لصعوبة الخط.

⁸ المغرب في ذكر إفريقيا وبلاد المغرب، أبو عبيد البكري، تحقيق وترجمة إلى الفرنسية البارون دي سلان، مطبعة الحكومة، الجزائر، 1857.

● لتحقيق نسبة الكتاب إلى البكري اعتمد المحقق على استنتاجات وشواهد العالم المستشرق م. كاترو مار (M. Quatremère)

● تحديد نسخ المخطوط الأخرى الاعتماد على بربرجر (Berburger)، ونسخة ريو (M. Rieu)، ونسخة غاينغو (M.de Gayangos)، وهذه الأخيرة بها إضافات هامة تكمل النسخ الأخرى.

● وصف النسخة الأخيرة المذكورة ، وتعيين مواطن الفجوات فيها.

أتمّ دي سلان عمله في تحقيق النص بتصنيف فهارس لأسماء الأمكنة وغيرها، وبيان للخطأ والصواب، لتصحيح نص الكتاب.

وما يمكن ملاحظته في تحقيق دي سلان أنه يختلف عن منهج دي غويه؛ حيث اعتمد دي سلان جميع النسخ للتحقيق، ولم يختار نسخة أكمل ليقارنها بنسخ أخرى في الهوامش.

III. الفرنسيان رينود ودي سلان وتحقيقهما لكتاب جغرافية أبي الفداء:

حقق جوزيف توسان رينو (J.T. Reinaud) المولود سنة 1867 عضو في معهد باريس، ومجلس الجمعية الآسيوية، مع زميله دي سلان كتاب تقويم البلدان لعماد الدين إسماعيل بن محمد المعروف بأبي الفداء⁹، ووقع الكتاب بنشرهما في خمسمائة وثلاثين صفحة (593)، وكعادة المحققين الغربيين أورد المحققان مقدمتين بالفرنسية: الأولى جاءت قبل النص العربي، والثانية سابقة للنص الفرنسي، والمقدمة التي تعنينا هي المقترنة بتحقيق النص العربي، وفيها تم اتباع المنهجية التالية:

● التعريف بأبي الفداء وبحياته اعتمادا على كتاب "المنهل الصافي" لأبي المحاسن، الذي وجد مخطوطا بالمكتبة السلطانية بباريس.

● ذكر مؤلفات أبي الفداء مما أفاد بها أبو المحاسن، صاحب المنهل الصافي، ومما قدّمه المؤلف أبو الفداء نفسه في كتابه التاريخ المختصر.

● الاستشهاد بشعر في رثاء أبي الفداء لجمال الدين أبي بكر محمد بن نباتة المصري.

● تثمين جهد أبي الفداء في كتابه التاريخ المختصر.

● تعيين الطباعات الفرنسية لأجزاء من تاريخ أبي الفداء.

⁹ طبع الكتاب في المطبعة السلطانية، باريس، 1840

- الاعتماد على كتاب كشف الظنون لحاجي خليفة في تعداد مؤلفات أبي الفداء الأخرى كمنظومته المعنونة بالحاوي، وهي غير كتاب الحاوي لنجم الدين عبد الغفار من قروين، كما أُلّف أبو الفداء الكناش وهو في علم الطب، وله أيضا كتاب الموازين الذي علّق عليه المحققان بأنه قليل القيمة مقارنة بالمؤلفات الأخرى.
- التعريف بابن أبي الفداء.
- الإحالة إلى كتاب السلوك للمقريري.
- وصف المخطوط والنسخة التي حُققت نسخة ليدن، والنسخ الأخرى الدّاعمة، والمنهج المعتمد.
- تاريخ إنهاء النسخ وهو سنة 721هـ، السابق لوفاة المؤلف بإحدى عشر سنة.
- ذكر سمعة الكتاب.
- انتقاد الكتاب، وذكر بعض سلبياته.
- ذكر مصادر أبي الفداء في كتابه تقويم البلدان، ومنها صورة الأرض لابن حوقل، وكتاب نزهة المشتاق للإدريسي، وجغرافية ابن سعيد، ولباب ابن الأثير الذي لم يصل إليه المحققان.
- تعداد أقسام الكتاب.
- التنبيه إلى بعض سلبيات النسخة المعتمدة في التحقيق من تشابه في الحروف، وعدم وجود الشكل، وتفاوت في المعلومات، وإيجاد صعوبة في وضعها داخل خانات الجدول.
- الاعتراف بفضل الكتاب وأهميته حيث جاء التعليق: "إذا كان هذا الوصف الشكلي ينبئ عن نقائص، فإن المحتوى الغني للكتاب يعوّض هذه النقائص الشكلية"¹⁰، كما أن الكتاب مميّز لم يسجل في عصره بأوربا كاملة كتابا مماثلا له.
- البرهنة على قيمة الكتاب؛ إذ لخصه الذهبي بعد وفاة المؤلف، وحوّله ابن علي المولى محمد سباهي زاده (ت. 997هـ) إلى معجم، ولخصه الكاتب ذاته وترجمه إلى اللغة التركية.
- شرح منهج التحقيق وذكر الإجراءات المعتمدة لتجاوز الصعوبات، وإن كان اعتماد المحققين أكبر على نسخة ليدن، لكنهما لم يمتنعا عن ترجيح واختيار التعبير الأصح،

¹⁰ أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد، تقويم البلدان، نج. م. رينو ودي سلان، ص. 40 (المقدمة).

والأنسب من النسختين الباقيتين، والاحتفاظ بكل ما هو جيد مما حذفه المؤلف أبو الفداء من النسخة المعتمدة؛ وهو ما يمكن أن يكون له فائدة في عصر التحقيق والنشر، ووضع العبارات المنتخبة من غير النسخة المعتمدة بين معقوفتين [...]]، ثم وضع ملاحظة في الهامش حول الزيادة المضافة في المتن.

- المبادرة بالتصرف في النص، وتغيير أماكن بعض الملاحظات المتفرقة وضمتها إلى بعضها، ووضعها في بداية الفصل المناسب، وكذلك وضع التعليقات على الجداول في نهاية كل جدول مناسب لها، وليس أسفل كل صفحة.
- إعادة ترقيم أسماء الأماكن في كل فصل لأن النقل لم يكن من نسخة واحدة.
- إجراء التعديل على الجدول الذي يصنف الفصول وأماكنها في النسخة؛ بسبب اختلاف النسخ الثلاث في عدد الفصول، وتعيين أماكن الفصول حسب الطبعة الجديدة المنشورة.
- إعادة ترتيب المادة حسب مواقع البلدان.
- تدعيم عملية مقارنة النسخ بنسخ أخرى من مصادر جغرافية أخرى كصورة الأرض لابن حوقل، ونزهة المشتاق للإدريسي، وجغرافية ابن سعيد، وهي النسخة التي اعتمد عليها المؤلف أبو الفداء ذاته، ومعجم جغرافي بعنوان مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع لصفى الدين عبد المؤمن البغدادي.
- الإشارة إلى المحاولات الأولى في إعادة نشر الكتاب مع غارنيي (Gagnier)، الذي اهتم بالجزء الخاص بالجزيرة العربية، وجيلد ميستر (M. Gildmeister) الذي نشر جزء منه في المجلة الآسيوية عام 1834 في شهري ماي وديسمبر.
- ذكر مناسبة نشر الكتاب من قبل المحققين، وهو حث أستاذهما سلفستر دي ساسي (M. Sacy) (1758-1838م) الرئيس السابق للجمعية الآسيوية، لكنه توفي قبل إنهاء هذا العمل.
- إتباع المقدمة بكشاف للأخطاء والإضافات.

منهجية التهميش:

ما يلاحظ على عمل التهميش عند المحققين رينو ودي سلان أنه كان أوضح مما جاء في عمل دي غويه، نزع فيه المحققان إلى عدم الترميز للنسخ، وكتابة المراجع مع شيء من التفصيل، الذي يقل

بعد ورود النسخة أو المرجع مرة أخرى، ويبدو هذا في المقارنة بين النسخ، والإحالة إلى ما ورد من اختلاف في النسختين الموجودتين بليدن وباريس، إذ نجد الإحالة على النحو التالي:

Le manuscrit n°578 de la bibliothèque royale de Paris porte ...

Le manuscrit autographe de la bibliothèque de Leyde porte ...

وتخفف الإحالة في المرة التالية كالاتي:

Le man. de Leyde porte ...

Le man. n°578 de la biblioth.roy. de Paris porte...

Le n° 578 porte...

Le man. autographe portait...

لكن هذا الاختصار لم يلتزم في كامل الهوامش حيث يرجع المحققان إلى التفصيل في بعض الإحالات، وكذلك يبدو المحققان في حالات قليلة أكثر إيضاحاً في الإحالة إلى مراجع التحقيق، وعدم اعتماد المختصرات الكبيرة لها، وأمثله:

On lit dans l'Abrégé de la Géographie d'Edrisi, 1^{er} climat, vi^e section, vers la fin, ces mots: ...

الفهارس:

ذيل المحققان متن كتاب تقويم البلدان لأبي الفداء بفهرسين مطولين: فهرست فصول الكتاب، وفهرست الأماكن، ولا نجد فهارس أخرى للأعلام مثلما هو معهود في التحقيق. وبالرغم من أن التحقيق أضاف الكثير للمكتبة العربية الجغرافية إلا أننا لا يمكن أن نغض الطرف عن سلبياته، التي وجدناها في هذا العمل ولم نجد لها في تحقيق دي غويه ومن أهمها:

- اقتصر رينو ودي سلان في تحقيقهما على العناية بضبط النص على طريقة المستشرقين في ذلك الحين، ولم يعتنيا بالمادة الجغرافية موضوع الكتاب.

- عدم التنبيه في كثير من المرات للأخطاء اللغوية والإملائية الموجودة والكثيرة، والمروء عليها دون أدنى إشارة، وبالتالي الاكتفاء بنقل النص كما هو بينما وجدنا دي غويه يصحح المتن ويشير إلى ما في النسخة الأصلية المعتمدة من خطأ.

- نجد بالمتن عدة ألفاظ وتسميات غريبة مرتبطة بأماكن وأنهار، وأقوام وهي ترد في الكتاب مختلفة دون أن ينبه المحققان عليها، أو يصوبها في الهامش، ويبدو دي غويه أكثر عناية بهذه المسائل.

- التخلي في الغالب عن تحقيق النصوص التي نقلها المؤلف أبو الفداء عن سابقه كالإدريسي وابن سعيد.

- عدم الترجمة للأعلام، أو التعريف بالأماكن، وعدم شرح الكلمات الأعجمية.

- التخلي عن تعيين المعلومات الدقيقة في الهامش (الجزء والصفحة أو الورقة) كقوله:

Le n° 578 أركان, et la Géographie d'Edrisi, أركان

Dans le man. d'Ebn-Said, Appartenant à la bibl. du Roi, on lit ...

Voici ce qu'on lit dans Ibn-Haucal, a propos de la ville de Tarse...

d'Ebn-Haucal, Ce passage est altéré; il faut lire, comme dans le trait

Les manuscrits d'Ebn-Khallican portent...

خاتمة:

بغض النظر عن جميع ما قيل حول الاستشراق والاستعراب ودورهما، وحول منجزات وبحوث كثير من الغربيين ذوي الصلات المباشرة أو غير المباشرة بالاستعمار، وأصحاب النظرات المتحيزة للغرب والمسيحية، فإن كتب هؤلاء المستشرقين والمستعربين وإسهاماتهم عملت بشكل بارز على إعادة الحياة لمصادر التراث الإسلامي، والجغرافي منه على الخصوص، وإطلاع العرب عليها، والاستفادة منها ومن مناهج الناشرين والمحققين العلمية الحديثة، وتعريف الأمم الأخرى بالحضارة العربية والإسلامية بواسطة ترجمة هؤلاء المستشرقين المؤلفات القديمة إلى اللغات الغربية خاصة في الجامعات التي افتتحت لديها العديد من مراكز الدراسات العربية والإسلامية، فلمعت في سماء النشر والترجمة أسماء كبيرة كدي غويه ودوزي، ودي سلان ورينو وجوينبول وفستفيلد... وغيرهم كثير، وبذلك يمكن عدّ الاستشراق مصدرا أولا وسابقا للدراسات العربية الحديثة.

قائمة المصادر والمراجع:

- أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني، المعروف بابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، نشر دي غويه، دار بريل، لندن، 1885م.

- أبو عبيد البكري، المغرب في ذكر إفريقية وبلاد المغرب، تحقيق وترجمة إلى الفرنسية البارون دي سلان، مطبعة الحكومة، الجزائر، 1857.

- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد، تقويم البلدان، تح. م. رينو ودي سلان، باريس، المطبعة السلطانية، 1840.
- إسماعيل العربي، دور المسلمين في تقدّم الجغرافيا الوصفية والفلكية، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1994.
- ريجيس بلاشير وجان سوفاجيه، قواعد تحقيق المخطوطات العربية وترجمتها (وجهة نظر الاستعراب الفرنسي)، تر. محمود المقداد، لبنان، سوريا، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، ط1، 1988، ص. 13.
- IBN KHODADBEH, Le livre des routes et des provinces, Publié, traduit, et annoté par C. Barbier De Meynard, Journal Asiatique, ou Recueil De Mémoires d'Extraits et des notices, Sixième série, tome v, Janvier- Février 1865.